۱۶۵۹۲

مجله	الازهر
تاریخ نشر	رمضان ۱۳۹۷ ق
شماره	۷ سال ۴۹
شماره مسلسل	
محلّ نشر	مصر
زبان	عربی
نویسنده	محمد الحدیدی الطیر
تعداد صفحات	۱۲۴۶ - ۱۲۴۰
موضوع	لیلة القدر
سرفصلها	
کیفیّت	
ملاحظات	

دراسات قرآنية :

ليلة القدر

لفضيلة الشيخ مصطفى محمد الحديدى الأشمونى

قال تعالى :

« انا أنزلناه فى ليلة القدر . وما أدراك ما ليلة القدر . ليلة القدر خير من الف شهر تنزل الملائكة والروح فيها باذن ربهم من كل امر . سلام هى حتى مطلع الفجر » .

ليلة القدر لها منزلة عظيمة فى نفوس المسلمين ـ خاصتهم وعامتهم ـ سلفهم وخلفهم ، وأهل الصلاح منهم ينتظرونها كل عام ، ليسموا بأرواحهم ونفوسهم فى أنوارها ، وينعموا ببركاتها ، ويغنموا من عطاء ربهم الذى وعده من قام ليلها وأحيا أسحارها ، وأهل الحاجات منهم يرفعون أكفهم ضارعين خاشعين ، يبتغون فضلا من ربهم ورضوانا ، وكشفا للنوازل وتفريجا للكروب ، ورحمة ربى وحنانه وسلامه وسعت الجميع ، فانه سبحانه يقول فى محكم كتابه « سلام هى حتى مطلع الفجر » .

والزمان كله عند الله سواء ، فليس لبعضه فضل على بعض الا لأسباب تقتضيه ، أو غايات تترتب عليه ، وكذلك كان الأمر فى ليلة القدر ، فانها وان كانت جزءاً من الزمان ، فقد رفع الله شأنها بنزول القرآن ، وشرفها بذلك على جميع الأزمان ، وجعلها من أجله متنزلا للرحمات ومهبطا للسلام ، من غروب شمسها الى مطلع فجرها ، فتعال معى أيها القارىء الكريم لنتعرف فضلها من سورة القدر التى نزلت بشأنها .

« انا أنزلناه فى ليلة القدر ».

القدر هنا بمعنى الشرف والمنزلة الرفيعة ، والمعنى : انا أنزلنا القرآن فى ليلة الشرف والمقام السامى ، لنزول القرآن العظيم فيها ، ولأن الدعاء والعبادة يعلو فيها قدرهما ويرتفع ثوابهما عند الله تعالى .

وتفسير القدر بالشرف معروف لغة ، يقال : فلان له قدر عند الناس — أى شرف ومنزلة كريمة ، وانما أضمر الى القرآن فى قوله « أنزلناه » مع أن اسم القرآن لم يسبق هذا الاضمار ، للايذان بعظم قدره ، واستغنائه عن التصريح باسمه .

وقيل القدر بمعنى التقدير ، فعن ابن عباس وغيره أنه يقدر فى هذه الليلة ما يكون فى تلك السنة من مطر ورزق واحياء واماتة وغيرهما الى السنة القادمة ، فيكون المعنى : أنزلناه فى ليلة تقدير شئون الخلائق ، أى اظهار هذه الشئون واعلانها للملائكة المأمورين بتنفيذ مقدرات الله فى الكون ، وهم الذين يعرفون بمدبرات الأمور ، كما فى قوله تعالى « فالمدبرات أمرا » أما تقدير الله لأمور الكون فأزلى سابق على خلق السموات والأرض ، كما جاء فى الحديث الصحيح « جفت الأقلام وطويت الصحف » .

وبهذا التأويل تطابقت الآية مع قوله تعالى فى سورة الدخان « انا أنزلناه فى ليلة مباركة انا كنا منذرين(٣) فيها يفرق كل أمر حكيم(٤) » .

وقيل للحسين بن الفضيل : أليس الله تعالى قدر المقادير قبل أن يخلق السموات والأرض قال ؟ بلى : قيل : فما معنى ليلة القدر ؟ قال : سوق المقادير الى المواقيت ، وتنفيذ القضاء المقدر .

وقد عظم الله تلك الليلة فقال :

« وما ادراك ما ليلة القدر »

وأى شئ أعلمك يا محمد ماهى ليلة القدر فى علو منزلتها عند الله تعالى ، يعنى أن فضلها العظيم

لا يعلمه سوى علام الغيوب ، ثم عظمها بأسلوب أصرح فقال :

« ليلة القدر خير من ألف شهر » .

فأنت ترى أنه تعالى اختار لانزال القرآن ليلة هى أشرف الليالى ، بحيث تعدل فى شرفها وفضلها بل تفوق ألف شهر ، وكيف لا تكون به كذلك وهو أعز كلام ، أنزله رب السموات والأرض على أشرف رسول لخير أمة أخرجت للناس .

وقد أجهد المفسرون أنفسهم فى فهم المراد من هذه الآية الكريمة ، فقيل معناها أن العمل الصالح فيها خير منه فى الف شهر ليست فيها ، وروى عن ابن عباس أنه ذكر لرسول الله صلى الله عليه وسلم أن رجلا من بنى اسرائيل حمل السلاح فى سبيل الله ألف شهر ، فعجب لذلك وقال : يا رب جعلت أمتى أقصر الأمم أعمارا وأقلها أعمالا ، فأعطاه الله ليلة القدر خيرا من ألف شهر لكل عامل الى يوم القيامة ، وكذلك روى عن ابن مسعود .

وما نظن أن مثل ذلك يصح رواية عنهما ، فان بنى اسرائيل كانوا يتهربون من القتال ، حفاظا على أرواحهم ، وضعفا فى ايمانهم ، فهم الذى قالوا لموسى عليه السلام « اذهب أنت وربك فقاتلا انا هاهنا قاعدون » فليس مقبولا أن يجاهد أحدهم ثلاثا وثمانين وسنة وثلثا فى سبيل الله ، وليس مقبولا القول بأن الرسول يرى هؤلاء أكثر من أمته أعمالا — وهم كذلك — ولا أطول منهم أعمارا ، فان آجالنا ليست بأقصر من آجالهم ، وأعمارنا وأعمارهم متقاربة ، وحسبك ما عرف من أعمار المومياوات (الجثث) الفرعونية ، فانها مثل أعمارنا ، كما أن أجسادهم فى حجم أجسادنا كما أنه ليس مقبولا أن يعدل قيام ليلها جهادا فى سبيل الله سواء كان الجهاد منا أو ممن سبقنا ، فان تعريض الأجساد والأرواح لأخطار الجهاد فى تأييد دين الله والدفاع عنه ، لا يمكن أن يفضله قيام ليلة واحدة مهما كان قدرها وفضلها ، فان الثواب على قدر المشقة .

ولو كان قيام ليلها يغنى عن الجهاد ألف شهر لتعرض الاسلام لخطر

كبير ، ولهذا قال بعض العلماء : ان المقصود من كونها خيرا من ألف شهر التكثير فى ثواب عبادتها ، وليس الحصر العددى ، والذى ينبغى فهمه أن هذه الليلة وان كان يعظم فيها قدر الأعمال وثوابها ، لقوله صلى الله عليه وسلم « من قام ليلة القدر ايمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه » رواه البخارى ومسلم ، فان كونها خيرا من ألف شهر حاصل بسبب أن القرآن العظيم نزل فيها ، فهو مصدر التشريع الالهى الرفيع ، والدستور الإلهى الخطير ، فكانت هذه الليلة خيراً من ألف شهر لم ينزل فيها ، لما فيه من المنافع العظيمة التى تعود على الجنس البشرى فى عقيدته ، وسمو روحه وأخلاقه ، وقوانين معاشه وأحكام معاده .

لقد كان الناس يعيشون قبل الاسلام فى حروب متتابعة ، فلاتكاد تنتهى حرب حتى تبدأ حرب أخرى أشد وأقسى ، لأسباب بعيدة عن الحق دانية من الباطل ، الى جانب ما كانوا يعتقدونه من ألوهية الأوثان ، وربوبية البشر والحيوان ، وما كانوا يفشونه من مفاسد الأخلاق والعادات ، وأدران الذنوب والمظالم ، فكانت هذه الليلة التى نزل فيها القرآن حداً فاصلا بين هذا وأمثاله من أنواع الجهالة ، وبين العلم والعرفان ، ومعرفة الواحد الديان ، وقوانين السلوك والأخلاق الفاضلة .

أليس القرآن الذى أنزله الله فى هذه الليلة ، مصدراً للاستقرار والوحدة والتجمع بين الأمة العربية وبين سواها على أساس من العقيدة السديدة ، وتبادل النفع والخير والمحبة والسلام ، فى ظل شريعة عادلة ، لافضل فيها العربى على عجمى الا بتقوى الله تعالى ، فكيف لاتفضل هذه الليلة ألف شهر لم ينزل فيها القرآن والناس فى جهالتهم يعمهون ، أليست ليلة الشفاء خيراً من ألف شهر يقضيها المرء عليلا مهدما .

والمراد من نزول القرآن فيها ابتداء نزوله — كما قاله الشعبى — فقد بدأ انزاله فيها ثم تتابع انزاله حسب الوقائع التى نزل فى شأنها لمدة ثلاث وعشرين سنة ، هى مدة الدعوة المحمدية ، على صاحبها أفضل الصلاة والسلام .

وروى عن ابن عباس أن القرآن كله نزل ليلة القدر الى السماء الدنيا ، ثم تتابع نزوله منها منجما على النبى صلى الله عليه وسلم حسب الوقائع ، ولكن ابن عباس لم يرفع ذلك الى النبى صلى الله عليه وسلم ، ولعل ذلك من قبيل الرأى القابل للصواب والخطأ ، فانه لا حاجة لنزوله دفعة واحدة الى السماء الدنيا ، ففى وسع جبريل وطاقته الملكية الخطيرة ، أن ينقله من اللوح المحفوظ الى الرسول بسرعة تفوق حد الخيال ، كلما دعت الحاجة الى نزول آيات القرآن العظيم .

تعيين ليلة القدر

أكثر العلماء على أنها فى أوتار العشر الأخير من رمضان ، ومعظم هؤلاء على أنها ليلة السابع والعشرين منه ، وعمادهم فى ذلك ما روى عن ابن عمر رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من كان متحريها فليتحرها ليلة سبع وعشرين » وما صح من رواية أحمد ومسلم وأبى داود والترمذى وغيرهم عن زر بن حبيش أنه قال : قلت لأبى بن كعب : ان أخاك عبد الله بن مسعود يقول : من يقم الحول يصب ليلة القدر ، فقال : يغفر الله لأبى عبد الرحمن ، لقد علم أنها فى العشر الأخير من رمضان ، وأنها ليلة سبع وعشرين » الى أخر الحديث : قال الترمذى : حديث حسن صحيح ، وخرجه مسلم وبقية من ذكرنا ، وقال أبى بن كعب : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « ليلة القدر ليلة سبع وعشرين » أى من رمضان .

وقال أبو بكر بن الوراق ، ان الله تعالى قسم ليالى هذا الشهر — شهر رمضان — على كلمات هذه السورة ، فلما بلغ السابعة والعشرين أشار اليها فقال (هى) وأيضا فان ليلة القدر تكرر ذكرها ثلاث مرات — وهى تسعة أحرف — فتجىء سبعا وعشرين : اهـ ولا شك فى أن هذه استنباطات لطيفة الى جانب الحديث الصحيح الذى عين أنها ليلة السابع والعشرين ، وقد تقدم نصه ورواته .

وبعد ما تقدم نقول : ان اختلاف العلماء فى تحديد وقتها تابع لاختلاف الروايات فى ذلك ، ولعل الله تعالى أخفى وقتها ليتعدد طلب العبد لها بألوان الدعاء والعبادة ، كما أخفى الاجابة فى الدعاء ليبالغ العبد فيه، وكما أخفى ساعة الاجابة فى يوم الجمعة ليجتهد العبد فى الدعاء فى جميع يومها ، وكما أخفى موعد قيام الساعة عن الناس ليديموا الحذر من مفاجأتها .

ونحن نرجح أنها فى العشر الأخير من رمضان ، لأن النبى صلى الله عليه وسلم كان يعتكف فى المسجد فى هذه العشر ، وأغلب الظن أنه كان يفعل ذلك لوجودها فيها ، ويساعد على هذا الترجيح ما نقلناه من حديث ابن عمر وحديث زر بن حبيش ، وحديث أبى بن كعب ، قالت عائشة رضى الله عنها : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا دخل العشر الأخير شد مئزره وأحى ليله وأيقظ أهله » .

« تنزل الملائكة والروح فيها باذن ربهم من كل أمر »

أى تنزل الملائكة والروح فى تلك الليلة على دفعات ، باذن ربهم وأمره من أجل كل أمر قضاه الله عز وجل فى السنة القابلة ، ليباشروا تنفيذه ، فان فيها يفرق كل أمر حكيم على ماسبق بيانه ، والملائكة أجسام نورانية قادرة على التشكل ، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، والروح هو جبريل عليه السلام ، قال تعالى « نزل به الروح الأمين : على قلبك لتكون من المنذرين : بلسان عربى مبين » وقيل الروح بمعنى الرحمة .

« سلام هى حتى مطلع الفجر »

أى يسلم فيها الملائكة على مؤمنى أهل الأرض تحية لهم ، وقيل يسلم الله عليهم ، والسلام من الله الرحمة ومن الملائكة استغفار .

ويجوز أن يكون المعنى أن الله يسالم فيها عباده ويتجاوز عن سيئاتهم السابقة اذا أقبلوا على عبادته جل وعلا ، ويستمر هذا السلام حتى مطلع الفجر .

من يحرز فضلها ؟

يحرز فضل هذه الليلة من قامها احتسابا لوجه الله تعالى ، قال صلى الله عليه وسلم « من قام ليلة القدر

ايمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه » أخرجه البخارى ومسلم .

وقال النووى فى شرحه لمسلم لا ينال فضلها الا من أطلعه الله عليها ، فمن قامها ولم يشعر بها لم ينل فضلها ، وخالفه المتولى والأوزاعى ، حيث قالا ان فضلها يناله من قامها باخلاص لله تعالى .

احياء ليلة القدر

احياؤها يكون بالصلاة والدعاء وقراءة القرآن والسنة النبوية فى وقت منها ، فلا ينام ليلها كله ، وأخرج مالك فى الموطأ عن سعيد بن جبير « من شهد العشاء من ليلة القدر فقد أخذ بحظه منها » أى من صلاها فى جماعة فقد نال حظا من قيامها الذى يحرز به فضلها ، قال القرطبى : ومثله لا يقال بالرأى .

وأخرج البيهقى عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من صلى المغرب والعشاء فى جماعة حتى ينقضى شهر رمضان ، فقد أصاب من ليلة القدر بحظ وافر » .

وأخرج الامام أحمد والترمذى وصححه والنسائى وابن ماجه وغيرهم عن عائشة رضى الله عنها قالت : قلت يارسول الله : ان وافقت ليلة القدر فما أقول ؟ قال : قولى: « اللهم انك عفو تحب العفو فاعف عنى » .

وقال سفيان الثورى : الدعاء فى تلك الليلة أحب من الصلاة ، قال : اذا قرأ ودعا كان حسنا ، ونحن نقول : اذا ضم الى ذلك الصلاة كان أحسن .

أصحاب الحظ السعيد

هم أولئك الذين يكشف الله لهم بعض ملكوت السموات والأرض فيرون الملائكة فيها على صورها ، بين قائم وقاعد وراكع وساجد ، ومسبح ومكبر ، ويشاهدون من عظمة الملك والملكوت مايحير الألباب ويجلى لهم كبرياء ذى الجلال والاكرام ، نسأل الله تعالى أن يجعلنا واياك أيها القارىء الكريم من أهل شهودها المنتفعين ببركاتها .

مصطفى محمد الحديدى الطير

١٦٥٩٢